# مذهب الملكات العقلية

للاستاذ محمد مظهر سعيد

أستاذ علم النفس

بمعهد التربية وكلية أصول الدين

— ٢ —

بينا في مقالنا السابق شيئا عن نشأة مذهب الملكات العقلية ، واستخدام العلماء الأقدمين له كوسيلة لتقسيم العمليات العقلية وتبويبها ، ثم لتعليل القوي العقلية وشرح عملياتها ، وكيف تطورت فكرة الفلاسفة عن الملكات من اعتبارها مجرد قابلية العقل للقيام بعمل معين الى القوي الفعالة البسيطة التي لا يمكن تحليلها الى عناصر أبسط منها ، وكيف اتسعوا في بحثها فلم يتركوا ظاهرة عقلية صعب عليهم تفسيرها وإدراك عملها وتحديد وظيفتها إلا وخلقوا لها ملكة جديدة ، حتي صار عدد الملكات أربعين أو يزيد . وبينا كذلك تفننهم في تحديد مراكز الملكات في الجهاز العصبي وسائر أعضاء البدن ، وكيف استغل ( جال ، واسبورزهايم ، والاخوان مولر ) هذا التقسيم وجعلوه أساسا لبناء علمي فراسة الرأس والوجه على أساس جديد .

وسنبين الآن كيف تشكك العلماء في هذا المذهب حتي توصلوا أخيراً عن طريق علم النفس التجريبي الى هدمه والحكم ببطلانه .

٦ — أوجه بطلان المذهب .

حمل الغزالى زعيم فلاسفة الاسلام حملة شعواء على مزاعم أفلاطون وأرسطو واتباعهما في طبيعة النفس وخواصها . ووقفى على أثره الكثير من علماء الاخلاق ، فأنكروا النفس الشهوانية التي تتطلب إشباع الشهوات الحسية وحاجات البدن الطبيعية ، ولم يسلموا بغير النفس العاقلة المفكرة . وفي هذا يقول ابن مسكويه : « إن تشوق النفس الى ما ليس من طباع البدن وحرصها على معرفة حقائق الأمور الالهية وميلها إلي الأمور التي هى أفضل من الامور الجسمية وإيثارها لها وانصرافها عن الأمور واللذات الجسمانية — يدلنا دلالة واضحة علي انها جوهر أعلى وأكرم جدا من الأمور الجسمانية — فأذن كانت أفعال النفس إذا انصرفت الي ذاتها فتركت الحواس مخالفة لأفعال البدن ومضادة لها فى محاولاتها وايراداتها فلا محالة أن

جوهرها مفارق لجوهر البدن ومخالف له في طبيعته » (١) و يؤكد « أن شوقها الى افعالها الخاصة بها أي العلوم والمعارف مع هربها من أفعال الجسم الخاصة به هو من فضيلتها » (٢) و ينزهها عن الرذائل التى هى أضدادها أي الشهوات الرديئة الجسمانية والنزوات الفاحشة البهيمية وكذلك يقول ردا على استقلال النفوس الثلاث بعضها عن بعض وتنازعها بالصورة المتمثلة في أقوال المتأخرين. إن « هذه الأنفس الثلاث إذا اتصلت صارت شيئا واحدا، ولكنها باقية التغاير، و باقية القوى فتصير في بعض الاحوال شيئاً واحداً وفى بعض الأحوال أشياء مختلفة — ولذلك يقول قوم إن النفس واحدة ولها قوى كثيرة، وقال آخرون : بل هي واحدة بالذات كثيرة بالعرض و بالموضوع (٣) . وتجد الكثير من هذا في أقوال الغزالى التى يكفر بها أرسطاطاليس ومن أخذ عنه من فلاسفة الاسلام كابن سينا والفارابى .

أما فى أورو با فقد حاول العلماء هدمه عن طريق الفلسفة قبل أن يهدمه علم النفس الحديث . ففي المانيا بدأ الفيلسوف « كانت » حملة المعارضة بارجاع العمليات العقلية كلها الى نوع واحد وهو الادراك أو التمثيل Vorstellung الذى جعله أساسا للوجدان والارادة (٤) وأيده فى هذا ( فورلاندر، وشلا يماخر، و بنيكا، ودر و بيش (٥) وغيرهم ) ممن رفضوا أن « يتصور و العقل مسرحا لحرب داخلية بين الملكات وبعضها » التى يكون مثلها على حد قول « فورلاندر » كالامبراطورية الجرمانية الرومانية يغتصب فيها الأمراء « الملكات » سلطة الامبراطور « العقل » أو أن تكون الحياة العقلية كما يقول « شلا يماخر » مأساة أظهر ما فيها مؤامرات الشعب ودسائس الحكام » (٦)

أما فى فرنسا فقد حوره ( ديكارت ) تحويراً بليغاً أخرجه عن معناه الاصلى من الناحية الموضوعية الى الناحية الفاعلية النفسانية بارجاع كل الملكات وسائر الأعمال العقلية الى الفكر أو الشعور، وقد فصل هذه النقطة تفصيلا جلياً بقوله :

« أنا أقصد بالفكر كل ما يحل فينا — أى فى عقولنا — فنشعر به من تلقاء أنفسنا مباشرة و بناء على هذا تكون الأرادة والفهم والتصور وكذلك الأدراك الحسى والأحساس كلها تفكير — أى ليس لها ملكات خاصة — فالعقل وحده هو الذى يدرك و يعى » (٧)

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق : الطبعة الحسينية ص ٥ و ٦ (٢) التهذيب ص ٨
(٣) التهذيب ص ٤٣ (٤) راجع Sully: Mind.P.50 (٥) Vorlander, Schleiermacher
(٦) راجع Maher : Psych. P.39 Beneke, Drobisch.
(٧) Descartes. Principles of Philosophy, Part 1, P. 9

وقد لخص هذه النقطة بجملته المأثورة : «أنا أفكر فاذا أنا موجود ـ Cogito ergo sum وهو بهذا يرد كل مظاهر الكائن الحى التى تشعر بوجوده وكينونته : « التى كانت تنسب قبله الى النفوس المتعددة أو القوى العقلية الى قوة واحدة وهى التفكير أو الأدراك على اعتبار أن الأدراك يشمل كل ما يحدث فى نفوسنا فنشعر به» (١) ويزيد هذه النقطة توضيحاً بقوله : « إن حقيقة وجودى أنا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحقيقة حدوث الفعل الشعورى المحدود ، وليس وجودى مستمداً من الشعور ذاته ـ كما ظن معارضوه ـ وإن كان لا يتمثل ولا يتحقق إلا في وجود الادراك . فكلاهما عاملان لا ينفصلان فى كل موقف ، أو فعل محدود يحدث في فترة محدودة من الزمن» (٢) ونشير هنا إلى أنه لم يقصد بالتفكير الادراك المجرد، وإنما الأدراك الحسى المميز ولذلك قال بالتخصيص Cogito ergo sum ولم يقل بالتعميم Cogitatio ergo ens أو entitas

أما قوة القوى أو ملكة الملكات التى تقوم بعملية التفكير المتضمن لسائر العمليات العقلية فهى فى نظره العقل وحده . فيقول :

« وأقول إن الجوهر الذى يقيم فيه التفكير مباشرة هو العقل Mens, Esprit ولم أقل Anima لأن هذه يقصد بها عادة شىء متجسم (٣) ويلخص ( ديلافورش ) الموقف بقوله : « إن التفكير هو الادراك الحسى أو الشعور أو العلم الباطنى الذى يشعر به كل منا مباشر بنفسه عند ما يدرك ما يفعله وما يمر فيه » (٤) والخلاصة أن ( ديكارت ) وأتباعه ردوا كافة الأعمال العقلية الى العقل Mens sive animus أو النفس المفكرة غير المستمدة من قوى البدن والتى لا تسكن في البدن كما يسكن القبطان السفينة وإن كانت تندمج فيه لتحس وتشعر أى يكون لها احساسات ونزعات وشهوات يتكون من مجموعها الرجل الحقيقى (٥)

وعلى أثر ( ديكارت) هب لمعارضة المذهب في فرنسا ( ريبو ) و ( تين ) و ( جماعة الوضعيين ) وكان لهم ( هارتلي ) واتباعه من أنصار مدرسة ( التداعى ) ضربة قاسية . وفى أوائل هذا القرن بدأ (براون ) الحملة من جديد وتبعه ( بيلى وصللى ) (٦)

(١) ( ديكارت) تعاريف ص ٨٥( 1875 Définitions: Resp. ad Sec. Obj. P.85

(٢) Méditations . Intr. P.22, Part 2, P.501

(٣) راجع رده على الاعتراض الثانى Reply to the Second Objection . Garnier Tome 2, P. 78 - 84

(٤) De la Forge, De l'Esprit, ch. III P. 14.

( ٥ ) راجع الفصل الخامس من Méditations

(٦) Ribot, Taine, Positivists, Hartley, Associationists' Brown, Bailey,Sully

وكذلك قضى علماء النفس والفسيولوجيا حتى القرن الثامن عشر على نظريات ( جال ) و ( اسبورزهايم ) فى علم القريتولوجيا وعلم قراءة الوجه (١)

وكذلك لم يخل علم النفس فى القرن السابع عشر، من هجمات أنصار هذا المذهب أمثال: « بلاتن » و « بنديكتوس » و « هوفمان » و « بوكين » (٢) .

أما علماء النفس التحليلى ، فقد عارضوا المذهب من النواحى الآتية :

(١) وحدة العقل : العقل وحدة كاملة لا يمكن تجزئتها ، وعملياته متصلة متجانسة ، تربطها روابط ثابتة ، تجعلها كحلقات السلسلة الواحدة ومجرى الشعور، وأن تكون من وحداتها ما يمكن تميزها بعضها عن بعض ، إلا أنه قد يزيد عن مجرد مجموع الوحدات التى يتكون منها . وما هذه المظاهر النفسية المتعددة ، والعمليات العقلية المتباينة التى نسبها الأقدمون إلى ملكات مسؤولة عن إحداثها وخلقها ، بسوى صور لشىء واحد ، وهو العقل . (٣)

و بعبارة أخرى ليست الحياة العقلية بمجموع حالات مختلفة، أو عمليات ممزة ، وإنما هى وحدة كاملة تتضمن جزئيات مرتبطة ، تتمثل فى العمليات العقلية التى يقوم بها العقل فى آن واحد ، أو فى أدوار متعاقبة (٤) كذرات الجزئية الكيمائية للعنصر الواحد .

(٢) نقص التحليل : لم يعن أنصار المذهب بتحليل الملكات المزعومة إلى أبسط أصولها ، أو دراسة الحالات المختلفة التى تتمثل فيها ، فقد اعتبروا ملكة واحدة ما هو فى الواقع مجموع أعمال عقلية ، كل منها يصح أن يكون فى ذاته ملكة مستقلة فقد يصح أن يكون هناك فارق بين تذكر الانسان للوجوه ، وتذكر أسماء أصحاب هذه الوجوه .

(٣) خطأ التأمل الباطنى : واعتمدوا كذلك كل الاعتماد على التأمل الباطنى ، وفاتهم عملية الادراك ، أو الارادة ، أو حالة الانفعال التى تبدو كاملة أثناء اللحظة التى يقومون فيها بالتأمل الباطنى قد تكون فى ذاتها نتيجة لسلسلة تغيرات طويلة ، كل حلقة من حلقاتها مهدت الطريق لما بعدها من الحلقات ، فحكمهم على العملية العقلية عامة إنما هو فى الواقع حكم على جزء واحد ، أو حلقة خاصة من هذه العملية ، أو نوع خاص، قد لا ينطبق على كل ما سواه من الحالات . فالحكم على شخص واحد بأنه جبار الذاكرة ، لمجرد ملاحظة أنه علم بكل أطراف الموضوع الذى نعالجه ، و بكل مراجعه والتسرع فى استنتاج أن هناك شيئاً عاماً أو قوة موجودة بالفعل اسمها ملكة الذاكرة ـ حكم فاسد لا يمكن تطبيقه على كل الناس.

وهب علماء النفس التجريبى لمناقشة هذا المذهب من الوجهة العملية وتمحيصه بطرق عملية

(١) راجع (صالى) العقل ص ٥٠ (٢) Platen, Benedictus, Hoffmann, Rankin

(٣) ماهر . علم النفس ص ٣٧ (٤) علم النفس التحليلى ص ١

سنشرحها فى مقالنا المقبل ، وكلهم من العلماء الأعلام أمثال : « ثورندايك » و « كارى » و « سلايت » و « ونش » (١) . فأثبتت نتائجهم إثباتاً قاطعاً لا شك فيه ، تؤيده البراهين العلمية والمشاهدات ، أن ليس هناك شيء يصح أن يطلق عليه لفظة ملكة بالمعنى الفلسفى القديم . وتتلخص نتائجهم فيما يأتى : —

(١) ليست الملكة فى ذاتها حقيقة كائنة بالفعل ، أو قوة تسبب حالة عقلية خاصة ، أو تحدث عملا خاصاً ، ولا هى بمجموعة حالات إدراكية أو عقلية من نوع واحد تتشابه تمام المشابهة حتى يصح أن يطلق عليها اسم ملكة عامة .

(٢) نعرف كذلك بالتجارب الشخصية والعلمية أنه ليس هناك ملكة واحدة تسمى ملكة الذاكرة يصح ان تكون قوية أو ضعيفة على وجه العموم فى فرد واحد — فقد يسهل على المرء تعرف صور بعض الاشخاص أو تذكر ملامحهم فى حين انه يتعذر عليه فى نفس اللحظة ان يتذكر اسماء هؤلاء الاشخاص وكذلك قد يسهل على الفرد تذكر تواريخ الحروب والحوادث الهامة في التاريخ بقدر ما يصعب عليه تذكر أرقام التليفونات أو الاحصائيات العلمية، فى حين أن الأساس فى الحالتين واحد وهو الأرقام، وقد اثبتت تجاربى التى قمت بها فى انجلترا انه قد يسهل على الانسان تذكر الالوان الحمراء التى تمثل مجموعة اللون الأحمر بقدر ما يصعب عليه تذكر الالوان الزرقاء ، مع ان الاساس في الحالتين واحد وهو اللون، وكذلك وجدت ان لا علاقة مطلقا بين تذكر الاشكال المنتظمة والاشكال غير المنتظمة بحيث يصح ان يكون المرء قويا جداً فى تذكر إحدى المجموعتين وضعيف جداً فى تذكر المجموعة الثانية — على ان الاساس ايضاً واحد فى الحالتين وهو الخطوط (٢)

(٣) تمرين الملكة الواحدة فى ناحية معينة عن طريق التكرار قد يؤدى الي تحسين هذه الملكة في هذه الناحية فقط.

ولكنه لن يحدث اى تغيير جوهرى فى النواحى الاخرى لهذه الملكة او في أية ملكة أخرى ترتبط بها فى أية ناحية من النواحى ، فتقوية الاستنتاج فى عمليات الحساب لا يقوى الاستنتاج فى أية مادة اخرى، ولا حتى فى علم الجبر ، وقد وجدت كذلك ان تقوية ذاكرة الاشكال ذات الخطوط المستقيمة لا يصحبه أى تغيير في تقوية ذاكرة الاشكال ذات الخطوط المنحنية .

(١) Thorndike, Cary, Sleight, Winch. (٢) رسالة للكاتب بالانجليزية عن : طبيعة ذاكرة الألوان والاشكال Specific Nature of Colour and Form Memoris

وأدت نتائج الباحثين في بعض الملكات الرئيسية الي نتائج هامة يحسن أن نشير اليها في شيء من الايجاز لتتمة البحث وان كنا سنتناولها بالاسهاب في مقالنا التالى :

*الذاكرة* : —

- ١ - من الثابت أن هناك أنواعاً رئيسية للذاكرة مستقلة عن بعضها تمام الاستقلال ولا ترتبطها ببعضها أية روابط . فيصح أن يكون الفرد قوياً جدا في أحدها أو بعضها وضعيفا في البعض الآخر (١) كذلك تؤيد التجارب أن هناك ذاكرات رئيسية كل منها تستند الى حاسة خاصة كالذاكرات السمعية والبصرية الى آخره ، وكل منها تنقسم بدورها الى أنواع ثانوية يربطها عامل واحد و هو الصفة العامة للنوع الرئيسي الذى تتفرع منه، وقد نصل بزيادة التحليل الي أنواع ابسط من هذه و هكذا حتي نصل الي عناصر أولية لاعدد لها تكون كالجواهر الفردة و يصبح حقيقة ما اعتبره ( استاوت ) فرضا « لما كانت الذاكرة في الواقع تتمثل فى قدرة العقل على استرجاع الحوادث الماضية وتذكرها كما حدثت وجب أن يكون لكل تجربة ماضية ذاكرة خاصة » (٢)

وعلي هذا تنقسم الذاكرة أولا الي اقسام رئيسية تمثل الحواس التي يستقبل العقل عن طريقها المؤثرات الخارجية - بصرية وسمعية وذوقية الخ- وتنقسم البصرية - بدورها الى أقسام ثانوية للأشكال والألوان والوجوه والحروف الخ . وقد وجد المؤلف أن لكل لون من ألوان الطيف الشمسي ومجموعته الخاصة ذاكرة مستقلة بذاتها . وكذلك تختلف قوة تذكر الاشكال المنتظمة ذات المعنى عن الاشكال غير المنتظمة التي لامعنى لها . (٣)

-٢- فلا صحة إذاً للقول بأن هناك ملكة عامة تقوم بكل عمليات التذكر.

-٣- والتمرين علي حفظ شيء معين قد يساعد على تسهيل حفظ هذا النوع بذاته . ولكنه لا يؤدى إلى أى تحسين فى باقي الأنواع أو بعضها مالم يكن هناك عامل مشترك بين النوعين (٤

-٤- علي أنه من المرجح أن للتمرين نهاية طبيعية لا يحصل بعدها أى تحسين مهما بذل من الجهد في الحفظ والتمرين .

---

(١) راجع مقال الكاتب عن النسيان في مقتطف فبراير سنة ١٩٣٠

(٢) ( استاوت ) : دليل علم النفس الكتاب الرابع الفصل الثالث

Stout .Manual , B k . 4 . C 3

(٣) راجع مقدمة رساله المؤلف

(٤) راجع مقال « سلايت » في مجلة علم النفس البريطانية المجلد الرابع S ight

**الانتباه : —**

ليس هناك مصدر واحد أو مؤثر أو سبب خاص ينتج الحالة العقلية التي نطلق عليها كلمة الانتباه (١) وليس هناك مقياس واحد يصح ان نقيس به عمليات الانتباه المعقدة وانواعه المختلفة (٢) لأنه يترتب على طبيعة المؤثر الموضوعيـة والشوق والرغبة الشخصية فى تتبع حالة معينة — والشوق في ذاته مركب من حالات مختلفة متعددة ليس بينها أدنى ارتباط . (٣)

فمن العبث القول بأن هناك ملكة خاصة تدفع العقل الى الانتباه لكل شيء (٤) أو أنها قابلة للتمرين .

**الخيال**

وكذلك أثبتت التجارب أن الخيال ليس بملكة عامة يمكن تدريبها وتنميتها عن طريق الدرس والاطلاع . لأن مجرد زيادة المعرفة بأنواع متعددة من العلاقات الفكرية لا تهيء العقل لأكثر من العمل بمقتضى هـذه الارتباطات . ولكنها لاتخلق قوة الابتكار والتشابيه والاستعارات ، والمحفوظات التي يملأ بها طلاب الأدب عقولهم لاتفيدهم فى أكثر من أن تجعلهم مقلدين لا أكثر ولا أقل . فحفظ ضروب الشعر وألوانه المختلفة لمن لايدرك معنى الشعر إدراكا ساميا و يتذوق مافيه من جمال لايخلق منه إلا شويعراً بسيطا يحاكى مقامات القدماء كما تحاكى الببغاء لغة الانسان .

**الملاحظة**

تختلف وجهات نظر الناس عند ملاحظتهم لشيء واحد . فالجيولوجي يرى في الحجر الواحد ما ينبؤه عن عمره وعمر طبقته والعصر الذي تكون فيه . أما الكيميائى فيهتم بملاحظة تركيبه الطبيعى والعناصر الداخلة فيه . أما عالم المعادن فيرى فيه عرق الذهب ان كان من الكوارتس أو الاسبستوس إن كان من السربنتين الازرق . وعالم الجغرافيا يرى فيه تأثير المطر والرياح وسائر عمليات التحات وهو حجر واحد لم يتغير . ولذلك تختلف وجهات نظر الناس فى ملاحظة الشيء الواحد باختلاف رغباتهم وميولهم ودراساتهم وسابق معرفتهم وعلمهم به .

والواقع ان الاستمرار على ملاحظة شيء معين او دراسته من ناحية خاصة قد يصرف الذهن عن ملاحظة الأشياء الأخرى أو دراستها من نواحيها المختلفة فليست هناك اذن ملكة للملاحظة حتي يمكن تدريبها .

(١) Watt, Economy and Training of Memory P. 37

(٢) Rusk, Exper. Education P.41

(٣) Arnold. Attention and Interest P. 42

(٤) Baldwin . Psy. P. 444

### الاستدلال والحكم

قد ثبت أخيراً أن ليس هناك أدنى ارتباط بين الاستدلال المنطق في القضايا الرياضية والاستدلال في اي نوع آخر من القضايا ، فالمحامى الفذ الذى يستخلص من قضايا الأجرام أدلة وأساليب لاتخطر على بال قد يعجز عن تلمس البرهان فى مسألة حسابية بسيطة او نظرية هندسية . وان كل نوع من انواع الحكم يتطلب معرفة خاصة وطريقة ممتازة للتفكير . فالقول بأن هناك ملكة للاستدلال والاستنتاج والحكم ، وأن دراسة الرياضيات كما يقول أفلاطون وارشميدس وفيثاغورث أو دراسة اللغة اللاتينية كما كان يقول علماء التربية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، هى خير طريقة لتدريب ملكة الاستدلال والحكم وتغذيتها هو قول باطل .

### الارادة :

تترتب ارادة الفرد على عقليته ومبادئه وعواطفه ونزعاته و بالجملة على شخصيته . ولما كانت هذه العناصر مختلفة في الاشخاص المتعددين وغير متساوية فى الشخص الواحد فليست هناك إذاً قوة أو ملكة عامة يصح أن تسمى إرادة . والشخص الذى يقال عنه قوي الأرادة هو فى الواقع يخضع لاشياء معينة أو يقوم بأعمال خاصة توافق نزعاته وميوله وتنيله السرور واللذة على حساب الأمور الأخري التي لا يميل اليها بطبيعته ، فيستهجنها في الاشخاص الآخرين كثيرا ماترمى الي العناد وصلابة الرأي وعدم الميل للاقناع بالحجة الدامغة فهو فى الحق ضعيف فى الناحية التي يقول أو يريد أن يظهر أنه قوى فيها .

محمد مظهر سعيد

# علم الحياة

( بقية المنشور على الصفحة رقم ٩٦٢ )

كيف يمكن للانسان أن يصلح نفسه وغيره ؟ أليس بتلافى غلطات الغير واجتناب الوقوع فى زلات الآخرين ؟ . ! وما فائدة التواريخ التى نقرأها ؟ أهى لمجرد التسلية وقطع الوقت ؟ لا لا ، إنها صورة حية تدرس بوساطتها احوال الأمم الغابرة وما حدث للشعوب السالفة من خفض و رفعة ، فنقف على مواضع الضعف منها فنتجنبها ، وعلى مواضع القوة فنأخذ بأسبابها ومسبباتها .

محمد سعيد بخت ولى